مقدمة المترجم

مع دخول البشرية عصر المعلوماتية والاتصالات السريعة التي أفسحت المجال واسعاً أمام توسيع دائرة الاطّلاع والتبادل الثقافي والمعرفي بين المجتمعات. ومع دخول البشرية القرن الحادي والعشرين، لم يعد مقبولاً القول إن المسافات تفصل بين الثقافات والحضارات وتقف حائلاً في طريق التبادل الثقافي والفكري.

لا شك أن البشرية، وعبر آلاف السنين، قد أسّست مجموعة من البؤر الحضارية - الثقافية المتناثرة في قارات العالم القديم. وحضارات الشرق الأقصى عموماً، وحضارة الصين خصوصاً هي واحدة من تلك الحضارات التي ما زالت، وحتى عهدٍ قريب، تُعتَبر إلى حدّ ما مجهولةً بالنسبة إلينا.

ولما كان عجز الطب الغربي عن الاستجابة الصحيحة لتحدّيات المرض واعتلالات صحّة البشر يزداد وضوحاً يوماً بعد يوم في نظر المريض والطبيب على السواء، وذلك لأسبابٍ منهجية - مبدئية، كان لا بد - للخروج من هذا المأزق - من التطلّع إلى أنواعٍ من الطب الآخر تقوم على مقدّمات ومناهج مغايرة جذريّاً. وهنا يطرح الطب الصيني نفسه كطبٍ، لا نقول بديل، كما شاع في العقود الأخيرة، وإنما كطب مكمِّل متمِّم، بإمكانه، وبكل جدارة، سدّ الثغرات المنهجية التي يعاني منها الطب الغربي، والتصدّي للكثير من التحدّيات المذكورة أعلاه بكل نجاح. فهو طب تأسّس منذ 2300 سنة كنظام علمي أخذ يتكامل ويتماسك بمرور السنين، ويبني على الفكر والفلسفة الصينيين، عمارةً سامقة استناداً إلى الخلاصات التي توصّل إليها حكماء الصين وفلاسفتها ومفكّريها.

الأستاذ الدكتور «مانفريد بوركرت»، الذي درس العلوم الصينية، العلوم العربية، العلوم اليابانية، الفلسفة والطب، ويُعتبر من الخبراء القلائل المعترف بهم في الصين أيضاً، يقدّم لنا في هذا الكتاب صورةً جليّةً عن المستوى الفلسفي والثقافي

الراقي الذي امتلكه الصينيون عبر الأجيال، ويبيّن لنا بكل وضوح تكامل المنهجين العلميين الغربي والصيني للخروج بطبّنا الحالي من مأزقه المتفاقم إلى آفاق طبٍ كلاّني شامل، لخدمة صحّة الفرد وصحّة المجتمع.

د. إلياس حاجوج

مقدمة بقلم فيرونيكا كارستنس

نعيش اليوم في زمنٍ تخضع فيه كثير من الأمور لتغيّرات جذرية. فليس من المستغرب أن يكون الطب عرضةً للحركة.

رغم أنه أمكن مكافحة الكثير من الأمراض بنجاح في الـ 150 سنة الأخيرة، وذلك جراء المعارف العلمية المتطوّرة، ورغم أن متوسّط عمر الإنسان يبلغ اليوم حدّاً مدهشاً، بيد أنه ليس بإمكاننا أن نكون راضين تماماً عن نجاحات طبّنا الحالي.

إذ يُقدّر أن 60 بالمئة من الأمراض - ويتعلّق الأمر بأمراضٍ مزمنة على الأغلب - لا تزال مجهولة السبب والآلية الإمراضية، وبالتالي لا تزال صعبة المنال علاجيّاً.

لذلك يحاول المرء، ومن خلال التشخيص المبكر على الأقلّ، السيطرة على الأمراض بصورة أفضل. ويؤدّي هذا المطمح، على الدوام، إلى تطوير تقنيّات تشخيصية باهظة التكاليف وبعضها مُجهد للغاية. وشيئاً فشيئاً يمتدّ بين الطبيب والمريض حقلٌ واسع يفصل بينهما، تسيطر فيه الفيزياء والتقنية والكيمياء مع عدد لا يحصى من الأجهزة والآلات والخبراء التقنيين.

كما يجري باستمرار، في سياق السعي إلى التغلّب على الأمراض المزمنة، تطوير أدوية وعقاقير جديدة، مما أدّى إلى تضاعف عددها في السنوات الأخيرة. وللأسف فلقد تزايدت جرّاء تأثيراتها الجانبية الأمراض التحسّسية التي نقف حيالها عاجزين في الغالب.

كل ذلك أدّى إلى كون صحّتنا وشؤوننا الصحّيّة اليوم أغلى منها في أيّ وقت مضى.

إذن أليس من الطبيعي أن الناس، وانطلاقاً من إحساس بالعجز والخوف من طب لا شخصي وعدواني، يُقبلون من جديد على كنوز ما يُسمى بالطب التقليدي - حذرين أولاً، ليتأكّدوا عندئذٍ، بدهشة، أنها تفيد في الكثير من الحالات فعلاً. ولم يتبع هذه الطريق المرضى فقط، وإنما أيضاً الكثير من أطبّائهم.

وهكذا فقد عادوا إلى أقدم طريقة علاجية، ألا وهي طب الأعشاب الموجود منذ الأزمنة الغابرة. كذلك إلى العلاج بالمثل (Homeopathy) الذي يُعَدّ من أكثر طرق العلاج عبقريةً في تاريخ الطب.

وأخيراً ذهب البصر متطلّعاً خارج حدودنا. وبدأ المرء بالاهتمام بطب الهنود الحمر وبطب سكّان إفريقيا على سبيل المثال.

وكان طبّ أقدم الشعوب الحضارية، الصينيين، الأكثر صعوبةً على الفهم. إذ إن الصينيين، وبمعزلٍ عن العالم الغربي، قاموا بحفظ بنيانهم الفكري فائق التميّز وبتدقيقه وتهذيبه. وهو بنيان فكري يمتاز برؤيةٍ كلّيّة شمولية من نوعٍ خاص.

وإذا أردنا فهم هذا الفكر والإحاطة به، فلا بد لنا من تجاوز كل ما تعلّمناه في المدارس الأوروبية والبدء من جديد. ويبدو أن الأمر يستحقّ ذلك، إذ إن نجاحات الطب الصيني واسعة ولا حصر لها.

ولقد افتقر الوسطاء والناقلون حتّى الآن هذه الطريقة المغايرة في التفكير. ويعود الفضل الأكبر للأستاذ الدكتور مانفريد بوركرت، بصفته خبيراً في الطب الشرقي والغربي على السواء، في تعريف الباحثين وإطْلاعهم خطوةً خطوة على هذا الميدان، وفي إيقاظ اهتمامهم وتشجيعهم.

ويعتبر كتابه هذا مدخلاً شيّقاً وآسراً إلى الطب الصيني. وفي وسعه أن يُحدث لدى الطبيب حالةً من الإغراء ويحثّه على الاستفادة من الإمكانات الكبيرة للطب الصيني كمكمّل للطب الغربي، وذلك عن طريق دراساتٍ إضافية.

كما وضع مانفريد بوركرت كتباً وأعمالاً مناسبة من أجل التوسّع والتعمّق في هذا الميدان. أما كتابه الذي بين أيدينا فيأمل أن يساهم في انفتاح طبّنا على طبّ مستقبليّ أوسع.

فيرونيكا كارستنس

مدخل

رغم استعداده الظاهر لتبديل طريقة تفكيره فإن العلم في الغرب لا يزال بعيداً عن إيجاد علاقة مناسبة مع الحضارة الصينية. صحيح أنه يُعترف في هذه الأثناء، وإلى حدّ بعيد، بأن الصينيين اكتشفوا البوصلة، امتلكوا ناصية فن الطباعة وقاموا بشيّ الخزف، وذلك قبل الأوروبيين بزمنٍ طويل، ولكن المرء لا يعتبر أن الأشياء قد تم اختراعها أو ابتكارها على أصولها إلاّ عندما تكون متاحة وتحت التصرف في أوروبا أيضاً. والمهم في الأمر أن قليلين جداً هم الذين يتوصّلون إلى فهم الاكتشافات الصينية البارعة في السياق العام للثقافة الصينية المتكشّفة عبر ما يزيد عن ألفيّ سنة.

فما يمكن كشفه في البوصلة، في الطباعة، في الخزف وفي الكثير من الإنجازات الصينية العلمية الأخرى لهو أكثر بكثير من الأسبقية التاريخية.

لاكتشاف ما هو صيني أصيل في الطباعة والخزف لا يجوز للمرء أن يقتصر على وصف أساليب الإنتاج والمنتجات وفقاً للقوالب الفكرية الغربية وباللغات الغربية. ولاكتشاف النباتات الطبية الصينية وغيرها من أدوية الطب الصيني التقليدي لا يكفي التجوال عبر الصين مع وعاء جمع النباتات وأنبوب اختبار، وإخضاع العقاقير، المجموعة على هذا النحو الذي أشبه ما يكون بالمصادفة، للتحاليل الناضجة لعلم الأدوية الغربي. إن ما يمكن كشفه بهذه الطريقة لا يتعدّى، في أحسن الأحوال، عقار في علم الأدوية الغربي قادمٌ من الصين بالمصادفة، حتّى لو كان هذا العقار مجهولاً إلى الآن خارج شرق آسيا.

فقط عندما نتوصّل إلى فهم الشروط الثقافية والإنجازات الفكرية التي أظهرت، وفي أزمنة أبكر بكثير منها في أوروبا، هذه الحصيلة الراقية للنتاج والخلق الإنسانيين، فقط عند ذلك يغدو في وسعنا استيعاب ما يميِّز البوصلة «الصينية» عن الأوروبية. فقط فيما وراء الصفات الفيزيائية لإبرةٍ حديدية تافهة نكتشف سماتٍ محدَّدة تؤكّد أنها بوصلة صينية. وفقط فيما وراء التحاليل الكيميائية نكتشف صفات خاصّة في الأعشاب الطبية تجعل منها أدويةً في الطب

الصيني. ولكن ذلك يحتاج إلى استعدادٍ واعٍ تماماً للتخلّي عن المقاييس الغربية والتدرُّب على النمط الصيني في التفكير والنظر إلى العالم.

من غير درايةٍ باللغة الصينية يكون الدخول إلى العلم وتاريخ الفكر الصينيين صعباً جدّاً. فقد يصعب أحياناً، حتّى على عالم الدراسات الصينية (Sinologist)، مقاربة النصوص المهمّة التي لا غنى عنها من أجل الفهم الإجمالي للعلم الصيني وإعادة بنائه العقلانية. ففي الطب التقليدي مثلاً لم تكن «المؤلفات الكلاسيكية» قد طُبعَت منذ 800 سنة. وتعاني الترجمات المتوافرة كافةً من عيوبٍ لغوية.

ومن الخير أن ماوتسي تونغ وضع حدّاً لتدهور الطب الصيني الذي دام لقرون وأمر في الخمسينيات بطبع الأدب الطبي الكلاسيكي بمجمله في إصداراتٍ متقنة. وقد قمت آنذاك بجمع هذا الأدب بشكلٍ منظّم واضعاً بذلك النواة من أجل اشتغالٍ بالطب الصيني دام ثلاثة عقود. وقد تركّزت جهودي أولاً على وضع المصطلحات المناسبة للنصوص الأصلية باللغات الغربية (اللاتينية، الألمانية، الإنكليزية، الفرنسية) وكذلك على معالجة الأسس النظرية للطب الصيني. وبعد أن تمّ وضع أساس ثابت بصورةٍ كافية قمتُ بوضع الحقول الفرعية، مثل التشخيص وعلم الأدوية الصينيين، في كتب مدرسيّة وفي رسائل عديدة. وقد مكّن التعليم الأكاديمي الطلاب من إتمام تأهيل في الطب الصيني، إلى جانب دراستهم للطب الغربي، وقاد أخيراً إلى تأسيس جمعية اختصاصية هي **جمعية الطب الصيني** (Societas Medicinae Sinensis).

وتتركّز اهتمامات مساعدي في هذا الكتاب، وهو كريستيان أولمان، على الفهم العلمي - النظري وإعادة بناء منظومة علمٍ أجنبي غريب.

نحاول في هذا الكتاب عرض نظرية الطب الصينية وتطبيقها العملي بشكل شامل ومفهوم عامةً، مولين عناية خاصّة للتعريف بأصول الفكر الطبي لدى الصينيين.

ولكن هنالك العديد من وجهات النظر غير الطبية التي تجعل الاشتغال بالطب الصيني يبدو مثمراً ومجدياً. فهو يمثّل بالتأكيد النظام الأكثر تماسكاً واكتمالاً وتفصيلاً لعلمٍ غير غربي، أي لعلم غير مصاغ باللغات الهندو - أوروبية. لذلك فإن هذا الكتاب يدخل في عمق النظرة الصينية العلمية إلى العالم، والتي لا تقتصر بالطبع على الطب وحده، وإنما تتناول كافة مجالات الحياة الفردية والاجتماعية والحدث الكوني.

مانفريد بوركرت